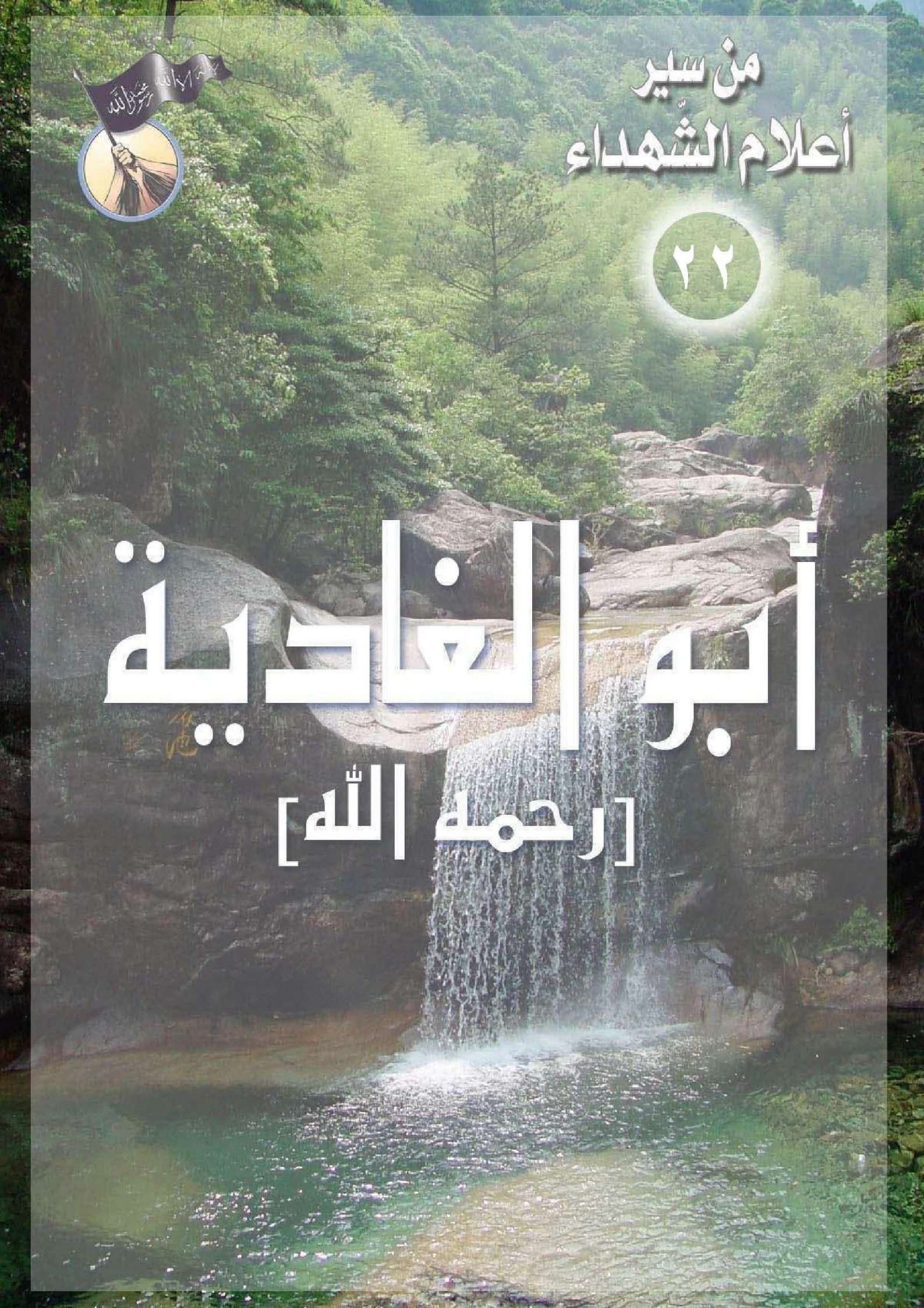
من سِير
أعلام الشّهداء
٢٢
أبو الغادية
[رحمه الله]

[أبو الغادية]

جميلُ الخُلُق والخلْقَة، طيّبُ الصُّحْبة والعشْرَة، ذكيٌّ زكيٌّ نَحْسَبُه، متواضعٌ في غير ذلَّة، ليِّنٌ إلاّ في ديْنه، صَلْبٌ إلاّ معَ إخوانه، خَدُوْمٌ منْ غير أنْفه، كان صاحبُ سرّ أسدُ الرّافديْن الأمين، وأوّل أصحابه المُقْدمين الأقْدَمين " تقبلهما الله وغفر لهما ".

من بلاد الشّام من سوريا الحبيبة، طبيبُ أسنان ماهر، هاجرَ إلى الله إبانَ فترة الدّولة الإسْلاميّة في أفغانستان، وهناك تعلّمَ أوّل دروس العسكريّة، وتفجَّرَت في نفسه ينابيعُ العبقريّة الإداريّة، فقد كانَ يعشق النِّظامَ والتّرتيب، يكره العشوائيّة والهمجيّة، يؤلمُهُ كلّ شيء في غير موضعه ولو كانَ كأس ماء، وكأنّ ذلك منبثق من طبيعة عمله كطبيب، لحقَ بركب أبي مصعب " تقبّلهُ الله وغفرَ له " مبكّراً واتّفقا على إحياء الجهاد في بلاد الشّام، وبدأ معهُ يرتّب أوّل لبنات البناء فكان معسكر هيرات، والتي ما تركَهَا إلا بعد الهجوم الرافضيّ عليها مستخدمين كلبهم " اسماعيل خان " وذلك إبان الهجمة التّتريّة الأمريكيّة على الإمارة الإسلاميّة الحبيبة.

وفي آخر لقطات حياته في تلكَ المديْنة كنتُ أراهُ أمام عيني " أبا الغادية " مُحَاصراً مع مجموعة من رفاقه في بيْت بقلب هيرات بالقُرْب من الجامع الكبيْر، وكأنّي الآن أسمعُ الحبيبَ وهو يتّصل بجهازه اللا سلكي ويُخبر أميره أبا مصعب أنَّ مجموعةً من المرتزقة أحاطوا بمنزلهم وطلبوا منهم الاستسلام، فيجيبُهُ القائد لا تفعلْ وسوف آتي لفكِّ الحصار مع الإخوة الطَّلَبة.

وبدأ الحصار يشتدُّ ويتضايقُ الإخوة أشدّ الضّيق، وينشرُ أبو الغادية إخوانه في مواقع قتاليّة من السَّطْح وبالقرب من النّوافذ، وفجأةً تنهالُ عليهم الإطلاقات والرّمّانات اليدويّة من كلّ مكان ويستبسل الإخوة في الدّفاع والقتال، وبعد يَأْس من عدوٌّ

جبان يـــأتي الإخوة من الخارجْ " الذين أرسلهم الشيخ أبـــو مصـــعب " فيفكّـــوا الحصار وينطلقُ الجميع سالمين آمين.

ثم يتّخذ الطالبان قرار مغادرة المدينة، فيستجيبُ أبو مصعب لقرار أولي الأَمْر ويغادر المدِيْنة الى قندهار.

المهمّ، غادرَ أبو الغادية الإمارة كجلّ من غادرها بعد إصرار أولي الأمر فيها بتقليـــل العدد إلى أقصى حدٍّ مُمْكن وانتقل إلى موضع رأسه إلى بلاد الشّام، وهناك بـــدأت مرحلةٌ مهمّةٌ وخطيرةٌ من مراحل الشّاب الهادئ الوسيم.

وذلك بعدما ودّعَ " سابقاً " عيادَتَهُ والتي كان يعالجُ فيها النّاس مجّاناً حتّى لا يذهبَ أهل قريته إلى طبيْب نصرانيّ كان يأخذ أجراً زهيداً جدّاً طَمَعاً منه في تنصيْرهم.

بالشَام بدأ يضعُ لمسات التّنظيم العمليّة، فشاركَ مشاركةً فعّالةً في كـــلٍّ مراحلـــه، وفجأةً ظهر اسمُهُ وصورَتُهُ إلى العالَم بعد تتهامه بالضّلوع في محاولـــة تـــدميْر مقـــرّ الاستخبارات الأردنيّة الصهيونية، وحُكمَ عليه بالإعدام غيابيّاً، لكنّ الرَّجُلَ ما جلسَ في غرفة مُصْمَتَة وأحاطَ نفسه بهالة من التّكتيم والحراسة، على الرّغم مـــن اشـــتهار وانتشار صورته، بل استمرّ في العمل وبلا كَلَل، فقادَ بتكليف من الشّيخ أبي مصعب تنظيم بلاد الرافدين بأحد البلدان، وأخذَ الرَّجُلُ يحوطُهُ ترتيباً وتنظيماً حـــتى اشـــتدَّ عودُهُ وقَويَ أمْرُهُ وأصبحَ رافداً مهمّاً من روافد جهاد العراق، ولّما ضُيِّقَ عليه انتقـــل الى العراق وبالتّحديد الى الفلوجة، حيث حضرَ إليها قُبَيْل اقتحامها بشهر تقريبـــاً، ففي إحدى أيّام العزّ كنتُ في زيارة إلى ناحيَة الشّهداء فاعترضني شابٌ وسيمٌ ممتلىء الجسم أبيضُ البشرة، أسودُ الشّعر ناعم، ببسمة ملئ عيونه، وفرحةً باديـــةً علـــى وجنتيه، قائلاً لي: خانتني كالعادة، فقلت: وجهك ليس غريباً عليّ لكن اسمك مـــا حضرني، ولا حتّى زمان اللقاء.

قال: يا رجل كنتُ آتيكم باستمرار في مضافة الجماعة بكابُل، فتذكَّرتُهُ واحتضنْتُهُ وجلستُ مَعَهُ نتذكرُ أيّامنا الخوالي، ونعيش أيّام عزّ الإمارة ولو لبضع دقائق، ثم انصرفتُ لسبيلي، وبعد ذلك أسند إليه القائد أبو مصعب " رحمه الله " إمْرَةَ شؤون المهاجرين بالفلوجة. وكعادته بدأ يُرَتّب شؤون الإخوة أحسنَ ما يكون، فأحدث ولأوّل مرّة ديواناً للمهاجرين ورقماً سريّاً لكلّ مهاجر وأعطاهُ له، على أن يسجل اسمه وعنوانه وأهم ما يمكن عنه في ملفٍّ سرّيٍّ جدّاً في مكان سرّيّ.

فعملَ إحصاءً دقيقاً لعدد المهاجرين لكل كتيبة، وتاريخ دخولهم، وأماكن تواجدهم، وأمرائهم، وغير ذلك من الدّواوين، فأجاد رحمه الله أيّما إيجادة.

ثم بدأت رُحَا الحرب أعني حرب الفلوجة الثّانية، وبدأت تزحف فيُرَى دخانُها ويُسْمَع أزيزها. واتّفقنا كما أسلفتُ على أنْ يكونَ مقرّ قيادة الأزمة في القلب أمام جامع الفردوس.

وهنا أُحبّ أن أقفَ وقفةً عسكريّةً مهمّةً، لماذا مقرُّ القيادة في القَلْب وليس في المقدمة؟، حيث كُنْتُ منذ دقائق من كتابة هذه الأسْطُر في نقاش مع بعض الإخوة بشأن هذا الموضوع، وأرى من الفائدة أن أنقلَ وجهةَ نظري إلى أحبّتي وإخْواني، اعلموا حفظكم الله أنّه من الخطورة أيّها الإخوة أن يكونَ قائد المعركة في المقدّمة، وخاصّةً إذا كانت المعركةُ مُتعدّدة الجوانب والأجنحة والفصائل، فلقد جربتُ ذلك بنفسي ففي مرّة من مرّات هجوم العدوّ، حيث تقدمتُ إلى الأمام وصارَ القصفُ خلفي بحيث لا أستطيعُ الرّجوع، فأصبحتُ لا أرى إلا ذلك الحيّز الذي أنا فيه من الجبهة، ولا أستطيعُ متابعةَ شيء سواه، وانقلبَ الأمر معي إلى جنديٍّ عاديّ وتحت العادي، إذ في الإخوة من هو أحسنُ وأشجعُ مني.

بينما ثبتَ إليّ بالتّجربة ما كنتُ أَقْرَأُهُ في القدَم أنّ القائدّ لا بُدّ أن يكونَ في القلب أو في المؤخرة في مكان يُشْرف على المعركة.

المُهمّ أن يكونَ في مكان يرى فيه جميعَ جوانبَ الجبهة ومحاورَهَا فيستطيع أن يُقَـدِّمَ فصيلاً إلى محور مَسَّهُ الضُّعْف أو يستجيب لنداء نقص العتاد في محور آخَر، أو يرى ثغرةً حدثت في نقطة فيقدّم من يسدّها أو يسحبُ من قطّاع جـزءاً مـن قـوّة لا يحتاجها أو يهتمّ بأمور أُخْرى فيراها رأيَ العَيْن من الجرحى والطعام وغيره. وهـذا هو سرُّ بناء الصّحابة لعريش النّبي صلّى الله عليه وسلّم في غزوة بدر، حيث كان في موضع يتحكمُ ويُشرفُ على المعركة فيقدّم حمزةَ وعليّاً ويُؤخّرُ غيرهم، ويسدّ الميمنة ويُجْبرُ الميسرة وغير ذلكَ من مهام القائد في المعركة.

المهمّ أنّ الشّهيد قد أخذَ مكانَهُ في حي نـزّال أمام جامع الفردوس، وفي هذا المكان تجلّت شجاعةُ الأمير الشّهيد،حيثُ كان يتقدّم إلى المقدمة ويأخـذ يحفّـزُ الإخـوة ويرتّب شئونَهُم ويقوّي من عزيمتهم، وما زالَ في ذلك على النّحو المعروف حتّى تمّ اقتحام نـزّال وفي تلكَ الليلة المظلمة كنتُ جالساً وإيّاه مع أبي جعفر وعدداً آخـر من الإخوة ثم انحزت وإيّاه الى مكان آخر، وأصبحَ الصّباحُ على معاركَ ضارية تكبّدَ فيها العدوّ الكثيرَ والكثير.

وما زلتُ أتقلّبُ معَ أخي وحبيبي من مكان إلى آخر حتّى آخر ساعة من سـاعات الفلّوجة، فما افترقنا قطّ في تلكَ الأزمة، وهنا أحبّ أن أُسَجّل بحصر الأشياء المهمّة التي حَدَثَتْ معهُ ومعنا والّتي كانت في بعض الأحيان ظّريفةً ومضحكةً، ومن ذلك أنّنا لما اشتدَّ الخطبُ وأحاطَ بنا العدوّ من كل مكان اجتمعنا ليلاً في بيت من بيوت الجهاد، وفي إحدى غرف هذا البيْت الواقعة في مؤخّرة المنـزل يُضيءُ مصـباح " الكيروسيْن " والمجاهدوْن حوله يقولون يا الله.

و بدا لي حينها أنْ أقترح اقتراحاً، فقلتُ: إخواني، أرى واللهُ أعلم، حالُنا أشدُّ ضيقاً وضنكاً من أصحاب الصّخرة الذين دَعَوا بصالح أعمالهم، فهيّا ندعو بصالح أعمالنا لعلّ الله أن يُفرّج عنّا، وقلتُ: كأني يا أخواني أفهمُ من الحديث أن يكون الدّعاء علانية، أي أن يجهرَ كلّ واحد منّا بأرجى أعماله عند الله، وذكرتُ أنّ المجالسَ بالأمانات، وتعاهدنا أن ينسى كلٌّ واحد منّا ما قاله أخوهُ أو يتناساهُ بعد الدّعاء.

وبالفعل بدأَ الإخوة يجتهدونَ في التّقرب إلى الله بأرجى أعمالهم إلا أَخَوَيْن اثنين استحيا أن يذكرا شيئاً. وتمرّ الأيام والليالي، وإذا بجميع من دعى في تلك الليلة المباركة يخرج سالماً آمناً من أحداث الفلّوجة، والعجب العجيب أن الأخوين سالفا الذكر كُتبَ لهما الشَّهادة ولم يخرجا، فالحمد لله على شهادة الإخوة وعلى سلامة الباقين. وكان مما دعا به حبيبي عبدالهادي " أبو الغادية " أمراً يتعلق بموضوع خدمة الإخوان ولولا ما تعاهدنا عليه لذَكَرْتُهُ الآن فالعذر منكم يا أحبابي.

و في هذه الأزمة تَنَقَّلْتُ والرَّجُل من بيت إلى آخر واختبئنا من مكان لمكان حتى اضطرتنا ظروف الحرب أن جلسنا في جُحْر صغير، والذي صارَ بصحبة عبد الهادي "أبي الغادية" قصراً كبيراً، فكانَ يخدمُنا خدمةً عجيبةً إلا أنّه كان مقتنعاً أنّه طباخٌ وليس بذلك. ففي بعض الأيام صارتْ لنا فسحة الطّهي، فطهى لنا أرزاً تبيّن عند الأكل أنه وصلته النّار من الوسط و لم يكتمل طبخُهُ من الجوانب، فَأَوَّلَها أنّ النّار كانت صغيرةً تركّزت في الوسط، وفي المرّة الثانية جاء الأرز قد اكتمل طبخه من الوسط وغير جيّد من الجوانب، فادَّعى أنّ النّار كانت كبيرةً فلم تصل إلى الوسط. وفي المرّة الأخيرة كانت المفاجئة، حبّة أرز مطبوخة وأخرى لم تكتمل، فادّعى أنّه خلط نوعين من الأرز، المهمّ لا يمكن أن تأكلَ أرزاً مطبوخاً بصورة جيدة أبداً

والعذر دائماً موجود، فأخبرتُهُ أنّي سأشهرُ به في العالمين، وها أنذا أوف ما قلتُ وأعلم أنّه سيُسامحني لأنّه حبيبي.

كانَ لوجود عبد الهادي في الأحداث دوراً مهمّاً، حيث كانَ الطّبيبُ الوحيدُ معنا في تلك الأحداث، أعني في حي نزال، فكانَ على الرّغم من كونه صيدليّاً، إلا أنّه كان يُضمّدُ الجراحَ ويعطي العلاجَ ويقومُ بعمل جبّار في هذا الأمر، غير أنّه كانَ حريصاً ألا يعلمَ أحدٌ أنّه طبيب، فكان رحمه الله يجوبُ المنازلَ بحثاً عن بقايا دواء أو مُطَهّر أو عَسَل أو أي شيء يمكنُ أن يُفيْد في تطبيب الإخوة والذين نزفَ أحدهم حتى الموت ولمدة ساعتين كاملتين، **وأذكُرُ كل هذا ليَعْلَمَ المسلمون حاجة الجهاد للأطباء وكافّة التّخصصات الأخرى.**

خرجَ أبو الغادية من الفلّوجة الثانية مُحمّلاً بالهموم وبالأفكار وأخذَ موضعه المُعتاد بجانب صاحبه أبي مصعب الزّرقاوي فكان رسوله إلى النّاس وموضع سرّه الأمين، وكالمعتاد، وفي إحدى المرّات أرسله الشّيخ إلى الحدود، أعني حدود الجزيرة (السّعودية) لاستقبال الشّيخ " عبد الله الرشود " مع الشيخ أبي اللّيث النّجدي رحمهُ الله، وفي تلك اللّيلة جاءت مداهمة الى تلك المنطقة، واستعدّ لها الإخوة ثمّ بدأوا بالاشتباك مع العدوّ، وبعد فترة وجيزة قصفَ العدوّ الجبان البيت بصاروخ مُوَجّه من طائرة حربيّة ليجعلَ البيْتَ رُكَاماً ويبني للثلاثة قصوراً في جنان عَدْن عند مليك مقتدر.

هذا وأُحبّ أن أن أُنوّه أنّي أعلم جيداً أنّي لم أقف على شيء من سيرة الرّجل إلا مواقف بسيطة ما زالت بالذّاكرة، لكنْ ما لا يُدْرَكُ جُلّه لا يُتْرَكُ كُلّهُ، والله يعفو عن خَطَأي وتَقْصيري، أسألُ اللهَ أنْ يَرْحَمَنَا برحمته التي وسعتْ كل شيء، اللهمّ آمين.

كما وأُحبّ أنْ أُروّح عن نفسي وإخواني بنكتة بسيطة حكاها لي الدكتور أبو الغادية " عبدالهادي " حدثت له مع الشّيخ الدكتور أيمن الظواهري إبان وجوده في أفغانستان، مفادها: أن الأخ (ذو الهمّة) أو (اللّوح) كما كان يُدْعَى من ضخامة جسمه وسُرْعة غضبه وقوّة بأسه لمن يبطش به، حتى أنّه ضرب عموداً للإنارة فأوقعه. المهم أن ذو الهمّة أرادَ أن يعمل عمليّة بواسير، وكان الذي سيتولّى عملها لهُ الدُّكتور أيمن " حفظه الله "، فجاء أبو الغادية مع ذي الهمّة، وقال للدّكتور: أُساعدك يا دكتور في العمليّة (لعدم وجوْد مُسَاعد)، فقال له الدّكتور أيمن: وحضرتك ماذا تعمل؟ قال: طبيْب. قالَ لهُ: أي تخصص؟، قال: أسنان، قال له الدُّكتور أَيْمن، " إحنا شغلتنا النّاحية الثّانية خالص ".

وفي الختام: هذه قصيدةٌ في رثاء أبي الغادية " رحمه الله "، كَتَبَهَا صديقه ورفيقَ دَرْبه وأحد أحبّ الناس إليه، وهو الأخ أبو أحمد:

فؤادُكَ مكلومٌ وصُبْحُكَ غيهبُ
وحُزْنُكَ من بحر النّوائب يشربُ

مُصَابُكَ يا قلبي عظيمٌ فهل
سَيُسْعفُهُ دَمْعٌ من الشِّعر يُسْلَبُ

وغايةُ آلآم وجفن مسهد
وبيداء أحزان بها العيس تنصبُ

نُمَسِّكُ بالآمال وهي بعيدةٌ
وتُدْركُنا آجالنا وهيَ أقربُ

أبا خالد هَبْ لي بياناً فإنّني
لفقدكَ موتورُ القريحة مُتعبُ

أعــرْ قلــبيَ المحــزون بعــضَ فصــاحة ... فقـــد كنـــتَ في كـــل الميـــادين تخطـــبُ

ورشّاشــــك الهــــدّار أبلــــغُ خطبــــة ... تُرتّلـــــها يمنــــاك زهــــواً وتســــهبُ

أتتــكَ علــوجُ الــرُّوم تنفــثُ سمّهــا ... لهــا مــن ثعــابيْن الــرّوافض تســربُ

وقد كان صدّ الــرّوم ســهلاً فمــن لنــا ... بجــرذان ليْــل وهــي بالصّــبح ثعلــبُ

إذا صــدقت ابــدتك محــض خيانــة ... فكيــــفَ وفي كــــلّ المحافــــل تكــــذبُ

قضــى الله أمــراً مــا لــه غــير عزمــة ... يفجّرهـــا ليـــثٌ ســـديدٌ مُجـــرّبُ

قَــذَفْتَهُم نــاراً فكــانوا وقودهــا ... وصُــبَّ علــيهم مــن حتوفــك أشــهبُ

كأنّــك في كــفِّ المنيّــة ســيفها ... تطــيح رؤوس الكفــر أيّــان تضــربُ

أبــا خالــد هــذي البطولــة تزدهــي ... علــى ذكْــركَ الميمــون تيهــاً وتطــربُ

بعثتَ بــروح الصِّــدْق صَــحْب محمّــد ... فحمــــزة والفــــاروق حــــيٌّ ومصــــعبُ

ستشــــهد هــــيرات بأنّــــك ليثهــــا ... وتشــــهدُ بغــــداد بــــذاك وتكتــــبُ

وأنّــك في ســا ح البطــولات ماجــدٌ ... وأنّــــك في ليــــل الكريهــــة كوكــــبُ

وأنّــك في تيــه الشّــدائد فرقــدٌ ... وأنّـــك في جـــدب السباســـب صـــيّبُ

ستذكُرُكَ الأنبار مُسعِّرُ حربها … إذا انسلّ من صفّ الخميسين مُذئَب

ستبكيكَ شام العزّ نسراً محلّقاً … جناحاك إيمانٌ وعزمُكَ مخلبُ

أبا خالد عذراً فمالي سوى الّذي … كتبتَ وهل بحر المآثر يُكتبُ

رثاؤك فرضٌ ما قضينا أقلّه … وهل يجبر الأركان شعر مهذّبُ

وكتبه:

أبو اسماعيل المهاجر